إنطلق من سلطان ذاتك

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنوده الثالث

انطلق يا أخى من استعباد ذاتك لك لأنك ان وصلت الى اتفاق مع نفسك ، و تحررت من الداخل ، فلن تستطيع كل الظروف المحيطة أن تؤثر عليك ، اذ تكون قد وصلت الى انطلاق الروح .

هل تحسب يا أخى الحبيب أن العالم له سلطان عليك ؟ و هل تظن أن العثرات و المغريات هى السبب فى سقوطك ؟ كلا . تخطئ كثيرا ان ظننت شيئا من هذا . فقد يكون للعالم أو مغرياته بعض التدخل , و لكن السبب الأساسى الحقيقى لسقوطك هو ذاتك من الداخل .

لو لم تكن قابلا للخطية , مرحبا بها ، أو محبا لها , لو لم تكن هكذا ما سقطت.

لقد كان يوسف الصديق يعيش فى جو مشبع بالخطية , و قد أحاطت الخطية فعلا بيوسف فى عنف . و لكنه لم يسقط , لأن كل الاغراءات لم تستطع أن تدخل الى قلبه النقى . فانتصر على الخارج كله , لأنه كان منتصرا فى الداخل .

لا تقل انى سقطت لأن العالم ملئ بالمغريات , و لكن الأصح أن تقول : انك سقطت لأن فى قلبك حنينا الى تلك المغريات و قبولا لها .

اثنان يمران فى الطريق على حانة , فلا يستطيع أحدهما أن يقاوم منظر زجاجات الخمر المعروضة , فيدخل و يشرب و يسكر , و أما الآخر فيمر على الحانة دون أن يشعر بوجودها أو بوجود الخمر فيها . لا يراها معثرة , و لا تترك فى نفسه أثرا , و لا تغريه , لسبب واحد : و هو أن قلبه خال من الحنين الى الخمر , خال من محبتها . قلبه نقى من الداخل لا تقوى عليه المؤثرات الخارجية .

انتصارك اذن فى حياتك الروحية يتوقف على عامل حيوى , و هو نتيجة المعركة الداخلية بينك وبين نفسك . ان استطعت أن تصلب ذاتك فى داخلك , ستخرج الى العالم الخارجى بتلك العين البسيطة التى ترى الخير فى كل شئ , و الجمال فى كل شئ , و كما يقول الرسول : " كل شئ طاهر للطاهرين " (تي 1 :15) .

بعض الناس يتحاشون الأوساط الخارجية المعثرة , و هذا حسن و واجب , لأن الله منعنا عن مجالس المستهزئين و طريق الخطاة . و لكن الخطأ هو أن هؤلاء البعض يكتفون بتحاشى الأوساط الخارجية تاركين الحيوان الرابض فى أحشائهم كما هو فى شهوته للعالم و الأشياء التى فى العالم . أمثال هؤلاء قد يصادفهم النجاح بعض الوقت , و لكن ما أسرع ما يسقطون عندما تضغط عليهم التجربة و تقحم الاغراءات ذاتها فى حياتهم ... هؤلاء يحبون الخطية و ان كانوا لا يفعلونها , و الشخص الذى يحب الخطية قد يسقط فيها ـ و لو بعد حين ـ مهما تحاشاها .

أمثال هؤلاء يبتعدون عن الشر , و لكنهم يعتقدون فى نفس الوقت أن عملهم هذا تضحية منهم فى سبيل الله . انهم ـ كالخطاة تماما ـ مازالوا يعتقدون أن الشر لذيذ , و الخطية حلوة مشتهاة , و ما زالوا ينظرون الى الشجرة فيجدونها جيدة للأكل و بهجة للعيون و شهية للنظر , و لكنهم يفترقون فى أمر واحد و هو أنهم لا يمدون أيديهم ليقطفوا . انهم لم ينتصروا فى الداخل , و لم يسكن الله فى قلوبهم لذلك فهناك فى العالم ما يغريهم و ما يعثرهم , ففيه الخطية المحبوبة التى يشتاقون اليها و لكنهم يهربون منها خوف السقوط فيها .

أستطيع أن أقول ان هؤلاء ـ من ناحية الفعل ـ يطيعون وصايا الله , و ان كانوا لا يحبونها و لا يحبونه .

مثل هذا النوع اذا استمر فى جهاده قد يخلص كما بنار , و قد لا يستطيع أن يستمر فى الجهاد فيسقط و يكون سقوطه عظيما , لأن بيته ليس مؤسسا على الصخر . أما الوضع الصحيح الذى يكون فيه الروح منطلقا , فهو عدم الاستعباد للخطية و عدم محبتها , حيث يكون الانسان حرا من تأثير الشر عليه . (فالمغريات) فى نظر غيره , ليست هكذا بالنسبة اليه لأنها لا تغريه , بل على العكس هو لا يتفق معها بطبيعته المقدسة , لذلك فهو لا يتجاوب معها , بل ينفر منها دون جهاد و دون تعب , اذ قد ترك هذا الجهاد السلبى , و أصبح جهاده سعيا فى سبيل التعمق فى الروح و فى معرفة الله .

و لكن الانسان ـ كما قلنا ـ لا يمكن أن يصل الى هذه الحالة ما لم يتنق من الداخل , و ينتصر فى حربه مع نفسه التى تشتهى ضد الروح . على الإنسان أن يصل مع نفسه الى اقتناع أكيد بمرارة الخطية و بشاعتها , و بحلاوة الله و متعة الحياة معه .

و فى هذه الحرب الداخلية " يقمع الانسان جسده و يستعبده " (1 كو 9 : 27) بل و يصلب فى ذاته رغباته و شهواته . لا يقيدها و يتركها تصرخ فتحنن قلبه

بصراخها و وعودها , و انما ينظر اليها بمنظار الله فيجدها حقيرة لا تستحق شيئا فينفر منها ... و هكذا يقول مع الرسول " مع المسيح صلبت ، فأحيا لا أنا بل المسيح الذى يحيا فى " (غل 2 : 20) . أ لست ترى أن هذا بعضا مما يقوله السيد المسيح " من اراد أن يخلص نفسه يهلكها و من يهلك نفسه من أجلى يجدها " (مر 8 : 35) .

و لكن هذا الأمر لا يمكن أن يتم بدون معونة خاصة من الله لذلك فالجهاد مع النفس لابد أن يصحبه جهاد مع الله . جاهد يا أخى معه فى ضراعة مرددا قول اسرائيل البار " لا أتركك حتى تباركنى " (تك 32 : 26) . قل له أيضا : " تنضح على بزوفاك فأطهر, و تغسلنى فأبيض أكثر من الثلج " (مز 50) . و ثق أنك اذا خرجت من هذه الحرب منتصرا فمن المحال أن تقوى عليك كل قوى الشر و لو اجتمعت .

و لكنك ترى يا أخى الحبيب أن كل هذا يحتاج الى الخلوة , و من هنا كانت الخلوة عنصرا أساسيا فى حياة أولاد الله . استطاعوا بها أن يجلسوا الى نفوسهم , و أن يجلسوا الى خالقهم , و أن يخرجوا من هذا و ذاك بأسلحة متجددة تعينهم فى حياتهم الروحية , و تدفعهم باستمرار الى العمق ... انظر الى حياتك جيدا و تأملها فى صراحة فربما كان أسباب سقوطها افتقارها الى الخلوة .

ان الشخص الذى لم يختبر هذه الخلوة , هو شخص لا يعرف نفسه على حقيقتها . و هو شخص فى أغلب الأحوال يجرفه التيار فلا يعلم الى أين يذهب . انه غالبا يفكر بعقلية الجماعة و يسير على هداها , فينحدر و يظل فى انحداره حتى يخلو الى نفسه فيحس أنه ساقط .

أما أنت فلا تكن هذا الشخص . حدد لنفسك أوقاتا مقدسة تراجع فيها سيرتك , و تتذكر فيها المبادئ السامية التى اقتنعت بها منذ زمان , و لتسترجع أمامك حياة المنتصرين من أولاد الله , و تغذى نفسك بكلام الله و أقوال الآباء و سيرهم , و تسكب نفسك أمامه فى حرارة و عمق . تأخذ منه خبزك اليومى الذى لا غنى لنفسك عنه .

الله معك يقويك , و يهبك القداسة التى من عنده , و يغفر لنا خطايانا .